بين الخطاب الأدبي و الخطاب الفلسفي
- بحث في الخصوصية-

الأستاذة : خضرة حمراوي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة عنابة- (الجزائر)

ملخـــص:

للخطاب أنواع عدَّة تتمايز في بنائها وطبيعتها وأهدافها ومناهج دراستها، وهذا ما تهتم به نظريات الخطاب التي تعمد إلى تجنيس الخطابات .و لعل البحث في خصوصية الخطاب الأدبي و الخطاب الفلسفي والكشف عن أوجه التشابه والاختلاف بينهما من القضايا المهمة والمتشعبة المداخل. لذلك سنقف عند خصوصية كل منهما شكلا ومضمونا، لغة و أسلوبا، عند منتج الخطاب و متلقيه، و الدور الذي يروم إلى تحقيقه وفق منهج يوازن بينهما .

Abstract:

Discourse has several types that are different in structure, nature, aims and study methods. This is the main interest of discourse theories aiming at naturalizing discourses. Research in the literary discourse and philosophical discourse specificity, and the detection of the similarities and differences between them may be considered as one of the main issues and the complex entrances. Therefore, we will focus on the specificity of each discourse in form and content; the language and style , the producer and the receiver of the discourse, as well as the role that seeks to achieve it according to a method that can balance between them.

مقدمة :

تعدّ محاولة الخوض في مقارنة الخطاب الأدبي بالخطاب الفلسفي مغامرة تكتنفها المزالق من كل صوب؛ فالخطاب متعدد الوجوه والمشارب، تتمايز أنواعه في بنائها وطبيعتها وأهدافها ومناهج دراستها، و هو ما تهتم به نظريات الخطاب التّي تعمد إلى تجنيس الخطابات، والبحث في خصوصيتها الشكلية والفنية و الموضوعاتية . وقد حظي الخطاب بأنواعه باهتمام الدراسات الحديثة والمعاصرة و تناولته مختلف المدارس كل حسب توجّهها،وحاولت هذه النظريات رسم الحدود الفاصلة بين كل جنس خطابي و آخر، وهو أمر غاية في الصعوبة لاسيما مع التيار الحداثي في الكتابة الخارق للنمطية ،و العابر للحدود و المتجاوز للبنيات السائدة . و تحظى الكتابة الأدبية والفلسفية باهتمام كبير في الوسط الثقافي و الفكري، فالأدب والفلسفة قطبان رئيسيان في تاريخ الفكر الإنساني، شهدا على مدار قرون تحولاتٍ كثيرة في مفاهيمها؛ فضلا على أنَّ لكل منهما خصوصيات من ناحية الموضوع والمقاصد والبنية المميزة لها، و كذا مناهج دراستها .

إنَّ دراسة الخطاب الأدبي تختلف عن دراسة خطابات أخرى ، فلا هو مثل الخطاب الفلسفي و لا مثل الخطاب القانوني ولا الخطاب السياسي ولا الديني...و لعلَّ السبب في هذا الاختلاف بناء على رأي ميشال فوكو Michel Foucault في كتابه "حفريات المعرفة"، راجع أساسا إلى طبيعة التشكيلة الخطابيةdiscursive formation التي تنهض أساسا على "قواعد التشكيلة" rules of formation، و معنى هذا أن لكل خطاب قواعد تشكلّه تتمثل في عناصر الخطاب كالموضوع و العبارات و المفاهيم[1]... من هذا المنطلق توَّلدت لدينا تساؤلات عن خصوصية كل من الخطاب الأدبي والخطاب الفلسفي؛ فما الذي يميّز كلَّ خطابٍ عن الآخر؟ وهل ثمَّة تداخل بينهما؟ و إذا كان لكل منهما بناؤه الخاص فهل يعني هذا أن كل خروج عن تلك النمطية هو خروج عن النوع في حدِّ ذاته؟

لذلك سنعمد إلى إجراء مقارنة بين الخطاب –الأدبي و الفلسفي- من ناحية الشكل و البناء و اللغة، و من ناحية الموضوع و المقاصد و الدلالة،و عن تلقيهما و منهج دراستهما .

1- الخطاب الأدبي و الخطاب الفلسفي بين سؤال الماهية و جدل المفاهيم :

يتّفق معظم المشتغلين في مجال الخطاب، أنَّ قضية التميز المطلق بين الخطابات أمر في غاية الصعوبة، ومجال مفتوح ومتشعب المداخل؛ لأنَّ الخطابات تتداخل تداخلا معقدا، تزيد من صعوبة رسم الحدود وتوضيح خصوصيات الأنواع الكثيرة، بل حتى في النوع الواحد. فالبحث عن خصوصية الخطاب الأدبي والخطاب الفلسفي مدخل واسع ، متعدد في المواقف والآراء، نجم عنه تعدد في المفاهيم، إذ لم يعرف الخطاب الأدبي مفهوما واحدا محددا ومطلقا مثله مثل الخطاب الفلسفي أيضا؛ فللأدباء والنّقاد مفاهيم ومصطلحات لا تعدّ ولا تحصى ،و للفلاسفة و المفكرين أيضا مفاهيم و أفكار عدَّة، و ظلَّ سؤال الماهية قائما يواكب المستجدات، ولا يسعنا أن نصوغ الكم الهائل من التعريفات بقدر أن نشير إلى هذا الواقع الذي تتزاحم فيه المفاهيم .

فمن أهم الفوارق بينهما حسب إبراهيم زكريا أنَّ "الشيء الرئيسي في الأدب -على عكس الفلسفة-إنَّما الفن، ما دمنا ننشد فيه المتعة لا الحقيقة، ونتوخى اللّذة الفنّية لا التعليم العقلي. فالأديب إنَّما يقدم لنا عملا فنّيا نرتاح إليه ونستمتع به ونستغرق فيه؛ وهو إذا حاول أن يحشد في عمله الفني أدلة عقلية أو براهين فلسفية أو مذهبا مجردا، فإنه قد يفسد عندئذ كل ما في عمله الفني من ذوق أدبي." [(2)] لذلك يختلف الخطاب الأدبي عن الخطاب الفلسفي في طبيعة التفكير والتعبير، فالعملية الأدبية تتميز بجرعة من الخيال وتحكمها الجمالية والفنية في تراكيبها وأساليبها؛ أمَّا الكتابة الفلسفية فتغلب عليها النظرة العقلية والمنطقية لقضاياها، و لها مميزاتها في تراكيبها و موضوعاتها ولغتها. ويرى الدكتور إبراهيم سعدي أنَّ الخطاب الأدبي خطاب نوعي له خصوصيته؛ فهو ينتمي إلى الظواهر الجمالية ويحقق فعاليته من خلال ما ينتجه من انفعالات وأحاسيس وعواطف في نفس الملتقي باستخدام جمالي وخيالي للغة، في حين أن الخطاب الفلسفي خطاب فكري ينتمي إلى الظواهر الفكرية و المعرفية .[(3)] لذلك فكل ما هو أدبي يقترن بالجمالية وكل ما هو فلسفي فإنّه تجريدي.

و هذه الصفات ليست مطلقة، فثمة من يربط بين الأدب والفلسفة على أساس أنّ كلاهما إنتاج فكري عقلي تحكمها علاقة تأثر وتأثير، لأنّها"شكلان متجاوران من أشكال الإنتاج الفكري والإبداع العقلي؛ يترابطان ترابط جوانب مختلفة لإنسان واحد، وأنماط مختلفة في حضارة واحدة " [4].

و توجهت بعض البحوث إلى التفصيل في مقارنة الأجناس الأدبية -أسطورة و شعرا .

و مسرحا و رواية - بالفلسفة. فإذا وقفنا عند الخطاب الشعري تحديدًا بحكم شيوعه قديمًا، و تذهب الدكتورة رجاة العتيري إلى أنّ الفرق بين النصوص الأولى للفلسفة و الخطاب الشعري أو الخطاب السفسطائي واضح و جوهري، فأفلاطون Platon نقد نوعين من الخطاب هما الشعر والأسطورة لأنّهما يستعملان الوسائل الخطابية نفسها، ولهما نفس الغايات، فالأسطورة كانت تقدَّم بأسلوب شعري أيضا، كما يشترك الخطاب الأسطوري والسفسطائي في الاعتماد على الاستعمال الجمالي والرمزي للغة للحصول على تغيير في نفسية السامع و في سلوكه على أساس الإيقاع و تواتر الأصوات و القافية واعتماد المعاني المزدوجة أو الغامضة التي تكلم الوجدان أكثر من العقل.ومن الفروق الأخرى بين الخطاب الفلسفي و الخطاب الشعري و الميثولوجي–الأسطوري-أنَّ الأول يستعمل النصوص المكتوبة التي يمكن قراءتها بصورة نقدية و تحليلية في حين يعتمد الآخر القصة و الرواية و الخطاب الشفوي الذي لا يترك المجال للتأمل لا في شكله ولا في مضمونه ...و من جهة أخرى تختلف النصوص الفلسفية عن الخطاب الشعري و الأسطوري باختيار لغة مجردة تعتمد على المفهوم و المصطلح الدقيق و المعاني الكلية التي تعرف بصورة دقيقة.[5] و بالتالي ما يميز الخطاب الأدبي هو التصوير الفني –الخيالي. أمَّا الخطاب الفلسفي يعمل على إيصال الفكرة مباشرة. فالفرق بينهما إذا :

الخطاب الأدبي مركزية التصوير الفني

الخطاب الفلسفي مركزية الفكرة

لكن إذا كان الأدب إبداعا، فهل هذا ينفي إبداعية الفلسفة بحكم انتمائها إلى الظواهر الفكرية؟

إنَّ الاختلاف في بعض الجزئيات بين الأدب و الفلسفة لا ينفي أن يحمل الأدب مضامين فلسفية وفكرية، كما أنَّه لا ينفي جمالية الخطاب الفلسفي وإبداعيته؛ لأنَّ النصوص الفلسفية التي تحمل في ثناياها بصمات أدبية لا تعدّ و لا تحصى، حيث اعتبر دريدا Jacques Derrida أنَّ الاعتقاد السائد حول خصوصية الفلسفة ذات اللغة العلمية الدقيقة، التي تبتعد عن المجازية والخيالية الخاصة بالأدب غير صائب؛ مستدلاً بدراسته للاستعارة والمجاز في الخطاب الفلسفي الغربي منذ أفلاطون. لذلك "تتشابك إستراتيجية الفلسفة بإستراتيجية الأدب لتصبحا كتابة تستهدف مراوغة اللغة وتقويض الميتافيزيقا وتفكيك أزواجهما " [6].

و في الحقيقة أنَّ الكثير من الخطابات الفلسفية القديمة والحديثة عرفت تسلُّل جماليات التعبير الأدبي في ثناياها، بل كانت تعبِّر عن أعمق القضايا الفلسفية في قالب أدبي، و الأمثلة عن ذلك كثيرة. إذ "يعتقد بعض المفكرين أنَّ النص الهيراقليطي ظلّ يبحث عن الشكل الأمثل للتعبير عن أطروحاته و معانيه،و لاحظوا أنَّ هذا الخطاب الذي يستعمل التعبير المجازي أكثر من لغة المفاهيم، و الأسلوب الشعري بصوره و استعاراته أكثر من التعبير المجرد.وفي نفس الوقت يوظف ألفاظًا مبهمة أو ذات المعاني المزدوجة إلى ألغاز وجناس وأسلوب التناظر أو التماثل.كما أنَّ النص اليوناني قد تميَّز بالإيقاع الموسيقي الجميل الذي يشدُّ الإحساس قبل الفهم العقلي للمعاني.وهذا ليس عفويا،هو أسلوب مدروس لغاية التعبير بأسلوب وبصورة أدبية أكثر من الصيغة العقلية وهذا ما أراده هيرقليطس Héraclite." [7].

و يتضح ممَّا سبق ذكره صعوبة الفصل التام بين الفلسفة والأدب، وصعوبة وضع حدود وفروق تميّز أحدهما عن الآخر،لأنَّ الحقيقة تبين مدى التداخل بينهما من البدايات الأولى للكتابة.وإن لجأ بعض الفلاسفة الذين تخيروا التعبير الأدبي ،أو بعض الملامح الفنية والأدبية للتعبير عن أفكارهم ؛ فإنّ هذا في حدّ ذاته فلسفة في الكتابة.و بطبيعة الحال إنّ اتخاذ مثل هذه الأساليب عند هيراقليطس على سبيل التمثيل لا الحصر –أسلوب الاستعارات- على حدّ قول سارج مورفيات Serge Morviat "ليس نقصًا أو عجزًا في استعمال المفاهيم،بل هو اختيار واعٍ و السبب في اختياره لهذا الأسلوب المجازي و الغامض

هو طبيعة الوجود الذي يريد الفيلسوف التعبير عنه بصورة مطابقة أو على الأقل تقريبية ".[8] و لعلّ تخيّر هذا الأسلوب و غيره لم يميز هيراقليطس فقط، فالكثير من الفلاسفة صنعوا لأنفسهم أسلوبًا خاصا بهم. فأفلاطون لم يكن في كتاباته فيلسوفا وحسب ؛بل كان أديبا و فنانا مميزا، في أسلوبه الخيالي الذي جمع فيه القصص والأساطير والاستعارات، وكذلك دريدا Jacques Derrida والألماني فريديريك نيتشهFriedrich Nietzsche في شذراته *التي فضَّل طبعها بالاستعارات والرموز على أن يقدّم تحاليل عقلية منطقية واستدلالية. فكتابة الشذرات Les Fragmentsمن الأساليب الخطابية المعتمدة التي تحمل مضامين فلسفية، ولذلك أعتدها نيتشه Nietzsche لأنَّها فكر مركّز يلخص ما يمكن أن يكتب في كتاب. وهذه الصفات ليست حيلاً بلاغية وأدبية، بل وسائل خطابية اعتبرها نيتشه موافقة أكثر للمعاني التي يريد التعبير عنها. [9] لهذا يتساءل كثيرون عن تصنيف الخطاب النيتشوي عما إن كان فلسفيًّا أم شعريًّا بالنظر إلى شكله. ولا تختلف تجربة غاستون باشلارGaston Bachelard -الملقب بفيلسوف الخيال الفلسفية-عن هذا المنحى فكتاباته جمعت بين الشعرية و العلمية ، وبين عقلانيته و خياله، وعُرف بعض النقاد البنيويين أيضا بأسلوبهم الذي يجمع بين أناقة اللغة الأدبية والفكرة الفلسفية العميقة كرولان بارت Roland Barthes وليفي شتراوسLevi Strauss وميشال فوكو Michel Foucault...

لكن هناك دعوات تعارض و ترفض هذه التوليفة في الكتابة؛ فجون لوك John Locke يرى أنَّ "الكتابة العلمية والفلسفية لا يجب أن تكون هدفا لاستعراضات أدبية و جمالية للأسلوب البلاغي." [10]لذلك يجب ألاَّ يبالغ في التقريب بينهما. و هذا ما يدفعنا للتساؤل مجدّدًا عن الشكل الملائم للخطاب الفلسفي، فهل يختار الفيلسوف شكلًا معينًا في الكتابة؟ وإن كان للأدب أجناس وقوالب للكتابة، فهل الأمر ذاته ينطبق على الفلسفة؟ وما الذي يجعل من خطاب ما خطابًا فلسفيًّا أو خطابا خارجا عن الفلسفة؟

2-بنية الخطاب الأدبي و الخطاب الفلسفي :

من الناحية البنائية و الشكلية للخطاب الأدبي معلوم أنَّه متعدد الأجناس، ، ولكل جنس بناؤه الخاص؛ فلا الشعر مثل الرواية ولا مثل المسرح ولا الملحمة، بل الاختلاف حتى في الجنس الواحد. والأمر ذاته بالنسبة للفلسفة التي نقرأها في أشكال متعددة كمحاورات أو مقالات أو قصص فلسفية أو قصائد أو شذرات، لكنَّ الشكل الأساسي لها والغالب عليها حسب إبراهيم سعدي هو الشكل النثري.

فتعدّد أشكال الكتابة الفلسفية واتخاذها الشكل الأدبي أحيانًا دليل على تفاعل الأدب وتداخله مع العلوم الأخرى، لاسيما مع الفلسفة. حيث يُطبَع الأدب بروح فلسفية، وتتجلى سمة الأدب الفلسفي فيه؛ أو تكتب الفلسفة في شكل أدبي، و الأمثلة لا تحصى من الأدب العربي والغربي. و تتلاشى الحدود بين ما هو أدبي وما هو خارج عن الأدب، ويتم تجاوز القيود الشكلية، فيتشابك الخطاب الأدبي والفلسفي تشابكًا لغويًّا وفكريًّا. وفي هذا السياق يقول أمين الريحاني في تمييزه بين الشعر والفلسفة:" إنَّ بين الشعر الكوني الروحي وبين الفلسفة التي تقرن المادة بالروح صلة متينة ،ونسبًا قديمًا يمت إلى أفلاطون وهوميروس ومن تقدمهما؛ والحق يقال إنَّ في فلسفة أفلاطون شعرًا صافيًا، و في شعر هوميروس فلسفة سامية"[(11)]؛ ولهذا لا يمكن لأي إنسان أن يكون شاعرًا كبيرًا دون أن يكون فيلسوفا عميقا لأنهما ينهلان من معين الإنسانية الواحد. فإن اختلفا -أي الفلسفة والأدب- في رأي بعضهم من حيث الشكل و تداخلا في مواضع أخرى، فهناك من يضع وجه الشبه بينهما من حيث **البنية**، فكلاهما ينطلقان من وحدات صغرى إلى وحدات أكبر، و يدخلان في إطار عملية تواصلية.و هو ما ذهب إليه كلود ليفي-شتراوس Levi claud Straus الذي يرى أن الخطابات الفلسفية و السياسية و الدينية و العلمية تتماثل مع الخطاب الأسطوري بنيويًّا من حيث أن تلك الخطابات تتركب من عناصر أدنى هي الكلمات أو الجمل، و لا تتوفر على فونيمات ، تنبع هي الأخرى من اللغة، و لا تشدِّد في وظائفها التواصلية على الجانب الصوتي و اللفظي للغة،بل على الجانب المفهومي التصوري.من دون أن ينسينا ذلك التماثل الاختلافات العينية الموجودة بين مفاهيم كل خطاب.[(12)]

و بعودتنا إلى المسار الطويل لتشكل كل منهما. نجد أنَّ النصوص الأدبية متباينة في بنياتها، بل إنها تتمايز حتّى في الجنس الواحد، وتختلف النصوص الأدبية القديمة عن الحديثة، و الأمر ذاته يخصُّ بناء النصوص الفلسفية التي عرفت تحولات أيضا إذ "كانت تكتب بشكل متقطع كشذرات أو فقرات تبدو مستقلة عن بعضها مثلما نجده عند هيراقليطس. ذلك أنَّ الخطاب الفلسفي الأول ظلَّ يبحث عن الشروط التي تجعل منه خطابًا خاصًا ومتميزًا، وما زال يشترك مع الخطاب الشعري والديني في استعمال الرموز والاستعارات والتعبير المجازي والتركيب الشعري ،و لغة الألغاز إلى جانب استعمال المفاهيم والمعاني المجردة "[13]. و تطورت بعدها في أشكال عدّة كالمقالات و الكتب ...كما أنّ هناك أصنافا خطابية متعددة في الفلسفة ذات أبعاد جمالية وفنية تقترب نحو الأدب حينا. لكن يظلّ لكل خطاب خصوصيته التّي تميّزه انطلاقا من الكاتب نفسه سواء أكان فيلسوفًا أم أديبًا، وصولاً إلى طبيعة الخطاب في حدِّ ذاته شكلا و مضمونا و قصديته و متلقيه. فالأهداف و الوظائف تختلف أيضا لأنَّ الأديب يسعى إلى التأثير في متلقيه بالأسلوب ، أمّا الفيلسوف فإنه يسعى إلى إيصال الفكرة .لكن هذا لا ينفي أهمية الأفكار في الأدب لأن كل عمل أدبي ينطلق من فكرة يسعى الأديب لإيصالها بأسلوبه الخاص .

و من أوجه التشابه بين الخطابين الأدبي و الفلسفي أنَّهما يوظفان اللغة كوسيط بين الكاتب و المتلقي؛ لأنَّ الخطاب كيان لغوي بالدرجة الأولى،رغم اختلاف درجة أهميتها في كلا الخطابين ؛فهي جوهر الإبداع الأدبي لما لها من دور جمالي،في حين تمثل الإشكالية جوهر الخطاب الفلسفي؛فلا يمكن تصور مقال أو بحث فلسفي بدونها، لأنَّ المنطلق الرئيسي الذي يقف وراء كل فيلسوف هو تساؤل أو بالأحرى تساؤلات "فالداعي إلى الخطاب الفلسفي لا يتولد لدى صاحبه إلا متى وجد نفسه أمام التباس، أو وجد غيره أمام هذا الالتباس" [14].فينطلق بحثا عن الحقيقة المقنعة بالحجة و الدليل العقلي.

لكن هذا لا ينفي أهمية اللغة بالنسبة للخطاب الفلسفي ،حيث تتجلى أهميتها في قول سقراط لجليسه « تكلم حتى أراك» .و في لجوء مارتن هيدغر Martin Heidegger للشعراء لما لهم من معرفة باللغة. "فالفلسفة كنمط متميز من التفكير توصف بأنَّها تعبير لغوي

يقوم من خلاله الفيلسوف بطرح جملة من القضايا و الإشكالات، حيث لا يمكن التفلسف بعيدًا عن اللغة، فالإنسان إذا لم يفكر بلغة فهو لا يفكر على الإطلاق " [15].

لكنَّ توظيف اللغة يختلف بين الأديب والفيلسوف؛ فالأدب يعرف بأنَّه " تنظيم محدّد للغة، له قوانينه وبناه و صنعاته النوعية الخاصة"[16]، وبالفعل فاللغة يمتلكها الجميع لكن من يمتلك ناصية الكتابة الإبداعية هم قلّة، بل حتى إن وجدت فإنّها تختلف من كاتب لآخر، و تتعداها إلى الاختلاف في الأسلوب لدى الكاتب الواحد ،فلغة الأدب تختلف عن اللغة العادية و حتى عن لغة اختصاصات أخرى كلغة الفلسفة. و الفيلسوف يعرف بأنّه "محترف تعقيد اللغة"[17].لكنّنا نلمس في بعض الكتابات خرقا للغة الاختصاص حين يكتب أدب بلغة الفلسفة أو فلسفة بلغة الأدب.

و يرى إبراهيم سعدي أنَّ مكانة اللغة في الخطاب الأدبي تختلف عن مكانتها في الخطاب الفلسفي؛ ففي الأول هي ذات مكانة كبيرة تبحث عن التميز؛ لكنَّها في الخطاب الفلسفي ليس لها ذلك المقام المتميز، بل عليها أن تؤدي وظيفة التوصيل الأمين للفكرة دون أي طموح لأداء وظيفة أخرى، لذلك لا تكون هناك مسافة بين لغة النص ودلالتها، كما أنّه خطاب يتّسم بالشمولية. على عكس الأدب الذي يميل نحو التخصيص. و النص الفلسفي لا يتحدث عن زيد أو عمر بل عن الإنسان عامة . [18]

نستنتج من هذا أنَّ الخطاب الأدبي يؤدي الوظيفة التبليغية أو الإخبارية والوظيفة الجمالية، أمَّا الخطاب الفلسفي فيولي أهمية للتبليغ،"فأرقى تحقق للغة في الفلسفة هو التطابق مع المضمون المراد التعبير عنه وتبليغه، فالقول في الخطاب الفلسفي أهم دائما من كيفية القول"[19] .ولا شكّ أنَّ للغة مكانة كبيرة في التميز بين الخطابات، فثمة دراسات حديثة تتعلق بلغات الاختصاص ترى بأنّ كلّ نصّ يعبّر عن اختصاص ما و له معجمه الخاص به الذي يميزه عن باقي النصوص، فالنص الأدبي يختلف عن النص العلمي وعن النص الفلسفي.وطبيعة الخطاب تحيلنا لمعرفة اللغة المستعملة و العكس صحيح. بيد أنَّ هناك استثناءات بحيث نجد فلسفة متضمنة في الأدب وهذا حال الأدب الفلسفي،أو العكس و هو أن ترِد الفلسفة في قالب أدبي و هذا ما يعرف بالكتابة الأدبفلسفية .

و إذا تحدّثنا عن اللغة يجب أن نقف عند المفاهيم، فهي من ركائز الخطاب الأدبي

و الفلسفي؛و العمود الفقري لها، لكن هناك اختلاف بين المفهوم في كل منهما و هذا ما وضَّحه الابستمولوجي جيل غاستون غرانجي GILLES –GASTON GRANGER في كتابه "من أجل معرفة فلسفية" حيث يرى أن الخطاب الفلسفي يقدم معرفة على أساس استعمال مفاهيم لا للحديث عن موضوعات مثل العلم و لا للتعبير عن صور أو مشاعر مثل الشعر، و لكن لتوضيح معان و أوضاع معبر عنها من قبل في خطاب غير مباشر يسمى في بعض الأحيان خطاب من الدرجة الثانية أو ما بعد الخطاب." (20)

أمّا الدكتورة رجاة العتيري فترى أنَّ ما يميز الخطاب الفلسفي عن الخطاب الشعري، أو الخطاب الأسطوري استعمال المفهوم عوضًا عن الاستعارة والرمز، وإعطاء النص الفلسفي نظامًا حسب عبقرية الفيلسوف وحسب النماذج التي اختارها، مثل النموذج التهكمي و التساؤلي عند سقراط ؛ فالمفهوم الفلسفي ذو صبغة مجردة للفكر تجعل منه فكرًا نخبويًا ،أو كما يقول غرانجي GRANGER ليست هناك لغة فلسفية ولكن هناك استعمال فلسفي للغة فقط. (21)

ولهذا يعدُّ الخطاب الفلسفي خطاب المفاهيم بامتياز، فقد كان الفلاسفة ينحتون مفاهيم جديدة باستمرار"فمثل الشاعر الذي يجدِّد اللغة ويبدع معاني دقيقة على مستوى الشعور والإحساس، فإن الفيلسوف يبدع معاني فكرية وعقلية جديدة للتعبير عن علاقات وأوضاع وإشكاليات جديدة عن طريق مقولات و مفاهيم جديدة"(22). لكن يجب التعامل مع المفاهيم بوعي كبير ،و بدرجة كبيرة من التدقيق،فكل مجال معرفي إلاَّ و له جهازه الاصطلاحي الذي يضبط مفاهيمه. " و المسألة لا تختزل في مجرد لعب بالكلمات واستبدال لشبكة مفاهيمية بأخرى مغايرة، لأن المفاهيم تحيل إلى محطات حضارية يمر بها الفكر الإنساني عبر سيرورته الإبداعية ." (23)

و تلعب طبيعة الموضوعات دورا في البناء الشكلي للخطاب الفلسفي؛ فما يميز الخطاب الفلسفي ذلك البناء الجدلي والطابع الحجاجي والبرهاني والاستدلالي، وهي من أولوياته.

و هذا البناء راجع في الأصل إلى طبيعة الموضوع، لأنَّ الانتصار لرأي وفكر ما يتطلب برهنته بحجج، ناهيك بعرض آراء أخرى معارضة أو مؤيدة للرأي الأول. بينما يكون

الحجاج والاستدلال أيضا من متضمنات الخطاب الأدبي إذا استدعى المقام ذلك ، لكنّها ليسا من أولوياته .

إضافة إلى الطابع الحواري؛ حيث اتّخذت الفلسفة القديمة من المحاورة أسلوباً لها على نحو ما كتبه أفلاطون وغيره،"فالحوار سمة من سمات الكتابة الفلسفية ذات الصبغة الأدبية التي انتهجها كل من اكسينوفون و انتستنيس و ايسخين و فيدرون و إقليدس فأسلوب الحوار الفلسفي سيرورة سيميائيَّة دالَّة على عادة التخفي في الجهر بالمعنى وراء قناع الشخصيات الأخرى "[24]. وما أكثر ما كُتب بهذا الأسلوب إمّا من باب التقليد وإمَّا لمحاولة تبسيط الأفكار على المتلقي.

ومن أخصّ خصائص الخطاب الفلسفي أيضا الدّقة في التعريفات و المفاهيم؛ووضوح ألفاظهاو محاولة ضبطها قدر المستطاع، "فمن واجب المتحدث أن يحدّد مدلولات ألفاظه، ومن حقّ المستمع أن يطالبه بتحديد ألفاظه كي يفهم حديثه، ولكي يلتزم المعنى الذي حدّده لنفسه قبل أن يحدّده لغيره. لهذا ينبغي التصريح بالألفاظ و المعاني و بكل دقة ". [25]

إنَّ الدقة في تخير الألفاظ و تحديد المعاني أمر محمود يمنع الوقوع في الغلط، و يسدّ الباب أمام كثرة التأويلات التي قد تشوّه المعنى؛ لكنّه لا يمنع من أن يكون التعبير على قدر من الجمالية و الإبداعية، لذلك عرف عن الفلاسفة بأنّهم محترفو تعقيد اللغة .

نأتي بعدها إلى متلقي الخطاب أو القارئ، فإذا كان الخطاب الفلسفي على هذا القدر من الدقة فإنّه يتطلب قارئًا نخبويًّا، قارئًا واعيًا يستطيع فك شفراته. وفي هذا يقول هانز ريشنباخ Hans Reichenbach:"إنَّ الفلسفة لا تقدّم تلك الحلول المغرية التي تقدّمها مذاهب تتحدث لغة مجازية وتهيم بالميول الجمالية، وإنَّما تقدّم إجابات لا يفهمها إلاّ ذهن مدرّب على التفكير المجرد، وهي تقتضي على تلامذتها دراسة كل جزء منها بدقة العالم الرياضي وانضباط المهندس" [26]. والأمر ذاته ينطبق على الخطاب الأدبي، فقراءة الأدب وتحليله عمل لا يتقنه إلاّ ناقد محترف؛ ولهذا يظلّ البحث عن المعنى قائما، وتتعدّد القراءات والتأويلات للنص الواحد مثلما تتعدد مستويات القارئ، فالدور الذي يلعبه القارئ مهمّ وفاعل في تحديد دلالة النص. و في تقييم و تقويم الإبداع الأدبي .

و إذا رجعنا إلى الدلالة ؛ نجد أنَّ مكانتها تختلف في الخطابين ، ففي الخطاب الفلسفي هي جوهر اشتغال الفيلسوف، وليست بُعدًا من أبعاد الخطاب كما في الخطاب الأدبي؛ بل هي النص كلُّه. حيث يمكن التصرف في لغة النص الفلسفي دون اختلال المعنى والدلالة، في حين لا يمكن الخطاب الأدبي إحداث تغيير في اللغة،لأنَّ هذا سيغير من الدلالة الحقيقية فلكل مبدع فلسفته في الكتابة،و أسلوبه الذي يحذ التعبير به و لا يملك القارئ سلطة تغيير النص ،فهو مطالب بقراءته كما ورد.و له الحق في فهمه الخاص. لذلك فنص الخطاب الأدبي نص مفرد لا يقبل التكرار، أمَّا نص الخطاب الفلسفي يمكن تكراره لأنَّ الأسلوب ليس هو ماهيته، بل الدلالة التي يمكن التعبير عنها بأكثر من كيفية. و بهذا نصل إلى أنّ الدلالة في الخطاب الفلسفي عارية مكشوفة، لأنَّ لغتها مختصّة شفافة مباشرة، أمَّا في الأدب فهي تخفي أكثر ممّا تكشف. [27]غير أنَّ بعض الدارسين اهتموا بموضوع إبداعية الفلسفة، كجون لويس غلاي John lewis Galay في كتابه- الفلسفة و إبداع النصوص- الذي بحث فيه عن البعد الإبداعي في الكتابة الفلسفية بالموازنة مع الخطاب المتداول المعبّر عن التجربة المباشرة للإنسان العادي .فالبعد الإبداعي في الفلسفة متمثل في الوقت نفسه في إنتاج نصوص جديدة و معانٍ جديدة في مفاهيم جديدة أو معرفة بصورة جديدة .و يؤكد غلاي أنَّ النص الفلسفي مزدوج الطبيعة، فمثلا العلامة اللغوية هناك الدال والمدلول أي الحامل الخطابي و المعنى الفلسفي؛ إلا أن الإبداع في الفلسفة على خلاف المعطى اللغوي الذي يكون فيه الدال في استقرار مرجعي يأتي في الوقت نفسه بمعانٍ جديدة في مفاهيم جديدة و هو ما يسمه غلاي بإبداع الفلسفم الجديد[28]، و هذا مجال واسع لكنه يمنح استمرارية الطرح الفلسفي و حيويته .

ومن أوجه الاختلاف أيضا حسب الدكتور إبراهيم سعدي، أنَّ الخطاب الأدبي يخضع لمعيار الذوق، في حين أنَّ الخطاب الفلسفي يخضع لمعيار الصدق أو الكذب [29]، وهذا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بقصدية كل خطاب، وهو من القضايا المهمة في التميز بين الخطاب الأدبي والخطاب الفلسفي. ذلك أن دراسة مهمة الخطاب الأدبي ومقاصده وجدواه من القضايا التي نطرحها باستمرار. لكن البحث في قصدية الخطاب الفلسفي أمر تحفّه مخاطر لا سيما لدى غير المختص. علينا أن نتابع خلفيات كل خطاب، لأنّ " البحث

الفلسفي خطاب يوجّهه باحث في الفلسفة إلى باحث آخر فيها، فهو يريد ويراد منه أن يكون على هيئة تكون قد شاركت في صنعها البحوث السابقة، وتصلح لأن تشارك هي بدورها في صنع البحوث اللاحقة"[30]. وهذا ما يعرف بالتراكمية المعرفية. أو كما يسميه فوكو الوجود التراكمي للخطابات حيث يرى أنَّه لا يمكن الفصل بين دراسة الخطاب و دراسة التاريخ مثلا .

الخطاب الأدبي والخطاب الفلسفي ومنهج التحليل :

إنَّ مسألة دراسة أي نص أو خطاب مهما يكن انتماؤه الخطابي، يتطلب الوقوف بالتأمل والتحليل في بنيته اللغوية ومضامينه الفكرية. فدراسة النَّص الأدبي والفلسفي يعتمد على كثير من الأساسيات ،أهمُّها السياق الذي ولدا فيه، فالرجوع إلى التراث الأدبي أو التراث الفلسفي يساعد على فهم النص فهمًا صحيحًا؛ لأنّ القراءة السياقية معتمدة في الأدب كما في الفلسفة أيضا، و"من الضروري ربط النص الذي نريد فهمه بفلسفة كاملة، أو بنظام فكري كامل يتجاوز مفهوم البنية التي أكد عليها مارسيل غيرو في دراسته لديكارت "[31].

ومثلما نعتمد مناهج نقدية في دراسة الخطاب الأدبي، فالأمر ذاته ينطبق على الفلسفة. فدارس الخطاب الأدبي يهتم مثلا بمعرفة الخلفية التاريخية للنَّص، و دارس الخطاب الفلسفي أيضا يجب أن يكون مطّلعا على تاريخ الفلسفة عامة، وأن يكون على معرفة بالفلسفة الخاصة التي تكون موضوع الدراسة على سبيل التمثيل."و هناك إنشائية خاصة بإبداع النصوص الفلسفية ومناهج خاصة لقراءة هذه النصوص، فمناهج التأويل والقراءة البنوية والدراسة النسقية لا تكون إلاَّ بتناول نصوص مكتوبة ومدونة محفوظة بصورة تضمن هويتها ووحدتها وشخصيتها الخطابية، وعندها يمكن الانتباه إلى بنية هذه النصوص وتركيبها و نسقيتها ومعانيها ومسلماتها، ويمكن الانتباه إلى الخصوصيات المبدئية والمنهجية والأسلوبية لكل نصٍّ فلسفي، وليس الشكل عفويا ولا مستقلا عن المضمون الذي أراد الفيلسوف التعبير عنه"[32]. وما هذا إلاَّ تأكيد على ترابط الشكل بالمضمون.

إنَّ دراسة إنشائية الخطاب الفلسفي تفضي بنا إلى معرفة مبادئ الكتابة الفلسفية، وما يميزها عن غيرها من الأنماط الكتابية، وهي شبيهة بدراسات نظرية الأدب. إلاَّ أنَّ "دراسة إنشائية النصوص الفلسفية من وجهة نظر إنشائية تبقى فلسفية وإن استعملت بالضرورة

أدوات علم اللسان ونظرية الخطاب وفن التأويل وفن البلاغة و البنوية والدراسة النسقية."[33] كما يعتمد أيضًا على الدراسات المقارنة بين نصوص الفلاسفة، أو الدراسات الابستمولوجية التي تبحث في علاقات وهذا يشبه إلى حدٍّ بعيد المقارنة بين الآداب أو البحث في تعالقات الأدب مع غيره من العلوم .

خاتمة :

نخلص من دراسة خصوصية الخطاب الأدبي و الفلسفي إلى أنّ لكل خطاب كيانه الخاص به، يفترقان في بعض النقاط و يلتقيان في أخرى فهو نتاج اختصاص معرفي له مقوماته و ركائزه، و هذا التميز نتاج تعدّد العلوم و الاختصاصات. لكن هذا لا ينفي تداخل الخطابات و انفتاحها على بعضها البعض، هذا التداخل ألغى فكرة نقاء الجنس، حيث أصبح تتزاحم الكثير من الخطابات في الخطاب الواحد. ، لذلك كانت مسألة تحديد علاقة الأدب بالفلسفة من القضايا الجدلية التي لم يفصل فيها .

و تبقى الكثير من القضايا الملتبسة في الموضوع تستوجب المزيد من البحث بوعي كبير. فلا شك أنَّ هناك سمات أخرى تميز كل خطاب عن الآخر، خاصة مع المستجدات الدائمة في الكتابة.لذلك من الجدير التعمق في مثل هذه المسائل و تدعيمها بدراسات تطبيقية مستقبلا.

الهوامش والمراجع والمصادر:

(1) ينظر ميشال فوكو حفريات المعرفة ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب،1987، ط2 ، ص37،38.

(2)إبراهيم زكريا: مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، مصر، د س، ص126.

(3)إبراهيم سعدي:الخطاب الروائي و الخطاب الفلسفي، مجلة الخطاب ، العدد1،جامعة تيزي وزو، 2006،ص 176

(4) ماجد فخري :أبعاد التجربة الفلسفية،دار النهار ،بيروت، 1980،ص 49،50

(5)رجاة العتيري : في الخطاب الفلسفي، وزارة الثقافة،تونس،2001، ص21 .

(6)عبد السلام بنعبد العالي:الأدب و الميتافيزيقا، دراسات في أعمال عبد الفتاح كليطو،دار توبقال،المغرب، ،2009، ط1، ص10

(7)رجاة العتيري: في الخطاب الفلسفي، ص 74بتصرف

(8) المرجع نفسه، ص76

*الشذرة أسلوب في الكتابة على شكل مقاطع و هو رؤية فلسفية للعالم من خلال الكتابة الشعرية ، ميز بها كثيرون من الفلاسفة و المفكرين أشهرهم في العصر الحديث نيتشه في كتاباته. إنها تشبه الومضة و التايكو اليابانية، فشاعر الهايكو مثلا يحاول من خلال ألفاظ بسيطة التعبير عن مشاعر جياشة أو أحاسيس عميقة .

(9) رجاة العتيري: في الخطاب الفلسفي، ص79

(10) بيتر ميداوارا و آخرون : فصول من الكتابة العلمية ،تحرير ريتشارد دوكنز، تر شفيق السيد صالح ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر،2011 ،ص28 .

(11) أمين الريحاني: أنتم الشعراء،مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ،مصر،2012،ص 22

(12)عبد السلام حيمر: في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، لبنان،2008، ط1، ص8،9

(13) رجاة العتيري : في الخطاب الفلسفي،ص22

(14) محمود اليعقوبي:أصول الخطاب الفلسفي،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، ص 29

(15)بشير خليفي: الفلسفة و قضايا اللغة، منشورات الاختلاف،الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010 ،ط1،ص32

(16) تيري ايغلتون :نظرية الأدب،ترجمة ثائر ديب،منشورات وزارة الثقافة،سوريا ،1995،ص 13

(17)جان فرانسوا ماركيه:مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة ،تر كميل داغر ،المنظمة العربية للترجمة،بيروت ، ،2005 ، ط1،ص19

(18) الخطاب الروائي والخطاب الفلسفي : ص 178.

(19) المرجع نفسه، ص 179.

(20) رجاة العتيري : في الخطاب الفلسفي ، ص 26.

(21) المرجع نفسه، ص 32 .

(22) المرجع نفسه ، ص 36

(23) الزاوي الحسين: الفلسفة الواصفة ،مقاربة لأشكال التعبير في الخطاب الفلسفي المعاصر، مركز الكتاب للنشر، مصر، 2000، ط 1، ص201 ،202

(24) أحمد يوسف: السيميائيات التأويلية و فلسفة الأسلوب ،مجلة عالم الفكر، الكويت ،العدد الثالث،المجلد 35،مارس،2007،ص64.

(25) محمود اليعقوبي : أصول الخطاب الفلسفي ، ص 49،50.

(26) ريشنباخ هانز:نشأة الفلسفة العلمية،تر فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،1979، ط 2، ص 113.

(27) إبراهيم سعدي : الخطاب الروائي و الخطاب الفلسفي، ص 181،182.

(28) رجاة العتيري :في الخطاب الفلسفي ،ص 62.

(29) إبراهيم سعدي :الخطاب الروائي و الخطاب الفلسفي ص 176.

(30) محمود اليعقوبي : أصول الخطاب الفلسفي ،ص 163.

(31) رجاة العتيري :في الخطاب الفلسفي،ص 84.

(32) المرجع نفسه، ص 109.

(33) المرجع نفسه، ص 112 .